العربية خالدة بخلود القرآن كدستور لدين الإنسانية : الإسلام

بقلم أحمد محمد جمال

استاذ الثقافة الاسلامية بجامعة الملك عبد العزيز بجدة

ان الواقع التاريخي للغة العربية وللدين الاسلامى ـ خلال اربعة عشر قرنا ـ يثبت حقيقة التلازم والارتباط بين انتشار كل منهما وازدهاره بمساعدة الآخر .

هذا الى جانب حقيقة اخرى واضحة وثابتة وهى ان فى كل من الدين الاسلامى واللغة العربية من القوة الذاتية والاستعداد الاصيل ما يكفل له الغلبة والانتصار .

فاللغة العربية ـ ذاتها ـ لغة حية ادت رسالتها فى الحياة خير اداء وعبرت فى عصورها الاولى عن حاجات المجتمعات التى تتخذها لغة لها تعبر بها عن مطالبها وآلامها وعلومها وآدابها وفنونها وما زالت مستعدة للتعبير عن الحياة وما جد فيها ومستعدة ان تتسع اكثر من ذى قبل لكل جديد مبتكر ومخترع حديث كما يقول الاستاذ احمد عبد الغفور عطار فى كتابه (الفصحى والعامية) .

واللغة العربية ـ ايضا ـ من اغنى لغات البشر ثروة لفظية تستوعب حاجات الامة الحسية والمعنوية كما يقول الاستاذ مصطفى السقا فى مقدمة كتاب (المعجم العربى) للدكتور حسين نصار .

والعرب منذ اواخر العصر الجاهلى مهتمون بلغتهم معتزون بتراثها الادبى وقد قيل (الشعر ديوان العرب) ولكن اهتمامهم واعتزازهم بها ازداد مع ظهور الاسلام لان الله عز وجل اختارها لغة لدينه قرآنا وسنة وعبادة وتشريعا وسيأتى تفصيل ذلك فيما بعد ثم تضاعف الاهتمام والاعتزاز باللغة العربية وحفظ التراث اللغوى وتنقيته من الدخيل الاعجمى اثناء الفتوحات الاسلامية وبعدها وعلى الرغم من ان الاستعمار العربى كان يعمل لهدم اللغة العربيةبحسبانها لسان الدين الاسلامى الذى ما يزال يحاول هدمهبالدعوة الى استخدام اللهجات العامية لغة للتاليف والكتابة كما فعل اللورد (دفرين) السياسى البريطانى حين طالب بتدوين العلوم باللغة العامية المصرية وكما حاول المستعمرون الفرنسيون فى الجزائر الا ان هذه الدعوات والمحاولات الاستعمارية قد باءت بالخيبة والفشل .

وليس ادل على خطأ هذه الدعوات والمحاولات وخداعها وافترائها ـ وان صدرت احيانا من بعض الكتاب العرب من راى الكاتب الانجليزى (هكسلى) الذى قال ان كتابة العلوم والآداب باللغة العامية يضعف المواهب العلمية ويقضى على ملكة الانشاء الفصحى لذلك ينبغى ان نرقى بعقول العامة الى فهم

لغة العلم والادب العالية لا ان ننزل بالعلماء والادبـــاء الى مستوى العامة وننتقل الآن الى الحديث عن اثر الاسلام فى انتشار اللغة العربية وسنروى اقوال بعض ائمة اللغة والادب مختصرة عن حقيقة التلازم القوى بين انتشار الاسلام بالعربية وانتشار العربية بالاسلام .

ونبدا بالازهرى الامام اللغوى المشهور فهو يقول فى مقدمة كتابه (تهذيب اللغة) : « الحمد لله على ما اسبغ علينا من نعمه الظاهرة والباطنة وهدانا الى تدبر تنزيله والتفكر فى آياته والايمـــان بمحكمـــه ومتشابهه والبحث عن معانيه والفحص عن اللغـــة العربية التى نزل بها الكتاب والاهتداء بما شرع فيـه ودعا الخلق اليه واوضح الصراط المستقيم به وهداهم الى ما فضلنا به على كثير من اهل هـذا العصر فـى معرفة لغات العرب التى نزل بها القرآن ووردت سنة المصطفى النبي المرتضى عليه السلام . »

هذا النص من مقدمة (التهذيب) لاحد ائمة اللغة الاعلام كاف لان نبين الباعث الاساسى على الاهتمـام باللغة العربية وتدوينها وتصحيحها الا وهو (الاسلام) قرآنا وسنة وعبادة وتشريعا .

والقرآن نفسه قبل كلام الازهرى وامثالـــه من علماء اللغة يؤكد حقيقـة هـذا البـاعث الاساسى للاهتمام باللغـة العربيـة والاعتزاز بتراثـها العلـمى والادبـــى .

فقد من الله تبارك وتعالى على رسوله صلى الله عليه وسلم وعلى العرب الذيـن بعـث فيهم ومنهـم بقوله عز وجل (انا انزلناه قرآنا عربيا لعلكم تعقلون) وقوله (لقد انزلنا اليكم كتابا فيه ذكركم افلا تعقلون) وقوله (وانه لذكر لك ولقومك وسـوف تسـألون) وقوله سبحانه (وانزلنا اليك الذكر لتبين للناس ما نزل اليهم ولعلهم يتفكرون) الخ ..

فنزول القرآن الكريم بالعربية ـ كما يتضح من آيات القرآن نفسه ـ دليل اهميتها وافضليتها وباعث نهضتها وصاحب الفضل الاكبر والاثر الاظـــهر فى نشرها وخلودها وهى ـ ايضا ـ لانها اغنى اللغـــات بيانا واقواها برهانا كانت ولا تزال عاملا مساعدا لنشر الاسلام والاقبال عليه ويكفى دليلا على ذلك اختيار الله لها لسانا لدينه العام والاخير وهو الاسلام ومنـــة بذلك على العرب خاصة والمسلمين عامة .

وقد روي عن الامام الشافعى رضي الله عنه انه قال (لسان العرب اوسع الالسنة مذهبـا واكثرهـــا الفاظا والعلم بها عند العرب كالعلم بالسنن عند اهـل الفـقـــه) .

ويقول الازهرى فى مقدمته «ان **تعلم العربية** التى يتوصل بها الى تعلم ما تجزىء به الصلاة من تنزيـل وذكر **فرض على عامة المسلمين** وان على الخاصة التى تقوم بكفاية العامة فيما يحتاجون اليه لدينهم الاجتهاد فى تعلم لسان العرب ولغاتها التى بها التـــوصل الى معرفة ما فى الكتـاب (القـــرآن) ثم فى السـنة والآثار واقاويل اهل التفسير من الصحابة والتابعين من الالفاظ الغريبة فان الجهل بذلك جهل بجملة علـم الكتـــاب الخ ...

ثم يذكر الازهرى من اسباب قيامه بتاليف كتابه النصيحة الواجبة على اهل العلم لجماعة المسلميـــن كما جاء بها التوجيه النبوى (الدين النصيحة) اى ان دينه حمله على ان يضع كتابه فى اللغـة العربيـــة لافادة الناس ما يحتاجون اليه والدفاع عن لغة العرب التى جاء بها القرآن وجاءت بها السنن والآثار .

ويقول الاستاذ العقاد رحمه الله فى مقدمة كتاب (الصحاح) للاستاذ العطار (ولقد قيل كثيـــرا ان اللغة العربية بقيت لانها لغة القرآن وهو قول صحيح لا ريب فيه ولكن **القرآن الكريم انما ابـقى اللغـة لان الاسلام دين الانسانية قاطبة** وليس بالدين المقصـــور على شعب او قبيل وقد ماتت العبرية وهى لغة دينية او لغة كتاب يدين به قومه ولم تمت العبرية الا لانـها فقدت المرونة التى تجعلها لغة انسانية وتخرجهـــا من حظيرة العصبية الضيقة بحيث وضعها ابناؤها منـذ قـــــرون .

ثم يضيف الاستاذ العقاد (ان هـذه الفضيلـــة الانسانية التى لا تفرق بين العربى والاعجمى ولا بيـن القرشى والحبشى لهى التى انهضت لخدمـة اللغـــة اناسا من الاعاجم غاروا عليها من حيف الاعجمية ـ اى انهم غاروا عليها من لغة امهاتهم وآبائهم لانها لغتهم على المساواة بينهم وبين جميع المؤمنين بالقرآن الكريـم كتاب الاسلام .

وستبقى اللغة العربية ما دام لها انصار يريـدون لها البقاء ولم ينقطع انصارها فى عصرنا الحاضر بـل نراهم بحمد الله يزدادون ويتعـاونون ويتلاقى ابنـاء البلاد المختلفة على خدمتها ودعمها لانهم مختلفـــون بمواقع البلاد متفقون بمقاصد الضمـائر والالسـنـــة والافكـــــار .

ان العقاد يعنى بما قدم ان **انسانيـــة الاسلام وعالمية تشريعه الحكيم هى التى ساعدت على انتشار اللغة العربية التى هى لغة كتابه (القرآن)** الذى وحد فى المؤمنين به (مقاصد) الضمائر والالسنة والافكار على الرغم من اختلافهم فى مواقع البلاد. ويقـــول الدكتور حسين نصار فى كتابه (المعجم العربي) : «لم تنهر اللغة العربية بانهيار الدولة الاموية وذلك بفضـل القرآن الذى احاط العربيـة بهـالة من القـداسة والجلال غمرت كل مسلم مهما كان جنسه ومهما كانت لغته فاستمرت حية تتوارثها السنة جيل بعد جيـل وان السبب المباشر الذى اظهر الدراسات اللغويـــة هو ارتباطها بالدراسات الدينية واتحادها فى النشاة فقد انزل القرآن كتاب العربية الاعـظـم على الرسول العربى الكريم ليدعو قومه الى سبيل الرشاد فكـــان بلغتهم وعلى اساليب كلامهم .

(وكان الرسول صلى الله عليـه وسلـــم ثـم الصحابة من بعده المرجع فى تفسير القـرآن ثم جاءت الحركة العلمية الاولى عند المسلمين التـى شملت فى مدة وجيزة جميع العلوم التى عرفها العالم القديم فما اتصل بالقرآن كان اولها ظهورا حيث ظهرت كتب (غريب القرآن) ثم كتب (غريب الحديث) وكان آخر الظواهـر التى امدت الدراسات اللغوية بالروافد ظاهرة التدوين العلمى حيث وضعت معظم العلوم العربية فى اواخـــر العصر الاموى واوائل العهد العباسى كعلوم القـــرآن والحديث والفقه والاصول والنحو والرياضة والمنطـق والكلام (والفلسفة الخ..)

نكتفى بهذه الآراء والنظريات لائمة اللغة والادب قديما وحديثا كحجة على مدى التلازم والارتباط بين انتشار الاسلام بالعربية وانتشار العربية بالاسلام اذ هى لسانه المبين وهو روحها النفاذ .

اما الاسئلة الجانبية الملحقة بالاستفتاء فنجيب عنها بايجاز .

1 ــ أن الـوعي الاسلامى والـوازع الـدينى لا يقويان او يضعفان تبعا لضعف لغة الضاد او قوتها بل يقويان او يضعفان بعوامل اجتماعية وثقافية وتربوية ايجابا وسلبا .

2 ــ الملاحظ ان للفكر الاسلامى عن طريق لغـة القرآن تاثيرا كبيرا فى السنة غير العرب من المسلمين فهم يحاولون فى اعتزاز ان يقلدوا العرب فى لغتهـــم وافكارهم وسلوكهم ويرون فى العرب ولسانهم قـدوة حسنة لان القرآن نزل عليهم وبلغتهم .

3 ــ اللغة العربية يجب ان تحتل المكانة الاولى فى كل بلد اسلامى بصفة عامة وفى كافة البلاد العربيـة بصفة خاصة وفى بلدى منزل القرآن ومولد الرسول ومهبط الوحى بصفة اخص .

ــ ارى انه تبعا لانتشار الاسـلام ينتشـر القرءان وتنتشر اللغة العربية التي انزل بها نظرا لكثرة التالين او الحافظين للقرءان بين المسلمين .

ــ هناك علاقة متينة حتمية بين الاسلام والعربية ولكن انتشاره لا يتوقـف على العربيـة لان عوامـل الانتشار والتوسع كامنة في مبادئه وقواعده .

ــ تاثر الفكر الاسلامي الى حد كبير بلغة القرءان العربية وتقدم تبعا لتقدمها ، وقد ظهر اثر ذلك حتى لدى الجاليات الاسلامية الموجودة خارج المنطقة العربية والوطن الاسلامي .

ــ اثرت اللهجات الاقليمية في العربية في بعض الاقطار غير العربية كالفارسية والقبطيـة والهنديـة والاندونيسية والماليزية وغيرها .

ــ كل المسلمين وفي ضمنهـم الجزيـرة العربية موقنون بوجوب الرفع من مستوى العربية واحاطتها بهالة من الاجلال والتقدير وجعلها تفوق غيرها من اللغات اعتبارا لماضيها المجيد وتقديرا لما اسدته للحضارة العالمية كلها من خدمات جلى .

الاستاذ سعيد مندوس
المملكة العربية السعودية